الخانات في الموصل الإسلامية ودورها الاقتصادي: دراسة تاريخية معمارية وتوثيقية خان الگمرك انموذجاً

Khans in Islamic Mosul and Their Economic Role: A Historical, Architectural, and Documentary Study—Khan al-Gomrok as a Case Study

م.م. فاتن محمد شويش الجبوري

قسم الاثار/ كلية الاثار/ جامعة الموصل

Faten Mohhamed Shwesh Al-Juburi

Department of Archaeology/ College of Archaeology
University of Mosul

المستخلص:

يتناول البحث دراسة "الخانات" في مدينة الموصل بوصفها أحد أهم الركائز العمرانية والاقتصادية التي ميزت المدينة خلال العصور الإسلامية، مع التركيز على خان الكَمرك كنموذج تطبيقي يجسد التمازج بين الوظيفة الاقتصادية والإبداع المعماري.

وجاء من خلال هذا البحث التركيز على عدة محاور أساسية منها :

النشأة والتطور: تتبع البحث الجذور التاريخية لبناء الخانات في الموصل، مستعرضاً العوامل الجيوسياسية التي جعلت من المدينة محطة دولية للقوافل التجارية بين الشرق والغرب.

الأهمية الاقتصادية: أثبتت الدراسة أن الخانات لم تكن مجرد أماكن للإيواء، بل كانت "مؤسسات اقتصادية متكاملة" تُدار فيها عمليات البيع بالجملة، وتخزين البضائع، وجباية الضرائب، مما ساهم في استقرار ميزانية المدينة وتنشيط أسواقها المحلية.

الدراسة المعمارية (خان الكَمرك): ركز البحث على توثيق الخصائص الهندسية لخان الكَمرك، موضحاً:

التخطيط: القائم على الفناء المكشوف (الحوش) المحاط ببيوتات تجارية وغرف مخصصة للإقامة.

مواد البناء: الاعتماد على الحجر الموصلي (الجص والخلان) الذي منح البناء ديمومة ومقاومة للظروف الجوية.

التحصين: المزاوجة بين الوظيفة التجارية والجانب الدفاعي لحماية أموال التجار وبضائعهم.

الكلمات المفتاحية: خان، عمارة، تخطيط، نشأة، تطور.

Abstract:

This research examines the "khans" (caravanserais) in Mosul as one of the most important urban and economic pillars that characterized the city during the Islamic era, focusing on Khan al-Kamruk as a case study that embodies the fusion of economic function and architectural innovation.

The research focuses on several key themes, including:

Origins and Development: The research traces the historical roots of khan construction in Mosul, reviewing the geopolitical factors that made the city an international hub for trade caravans between East and West.

Economic Importance: The study demonstrates that khans were not merely places of accommodation but "integrated economic institutions" where wholesale trade was conducted, goods were stored, and taxes were collected,

thereby contributing to the stability of the city's budget and the revitalisation of its local markets.
Architectural Study (Khan al-Kamruk): The research focuses on documenting the architectural characteristics of Khan al-Kamruk, explaining: **Planning:** Based on an open courtyard surrounded by commercial buildings and rooms designated for residential use.

Building Materials: The use of Mosul stone (plaster and gypsum) gave the building durability and resistance to weather conditions. Fortification: Combining commercial function with defensive purpose to protect merchants' money and goods.
Keywords: caravanserai, architecture, layout, origins, development.

النتائج المستخلصة:

خلص البحث إلى أن خان الكَمرك كان يمثل "المركز العصبي" لتجارة الموصل الخارجية نظراً لقربه من نهر دجلة والجسر القديم.

أكدت الدراسة أن عمارة الخانات في الموصل هي انعكاس مباشر للازدهار الاقتصادي؛ فكلما زاد النشاط التجاري، تطورت الأساليب المعمارية والزخرفية لتلك المنشآت.

شدد البحث على ضرورة الحفاظ على هذا الإرث المعماري كونه يمثل الهوية التاريخية للمدينة وذاكرتها التجارية.

المقدمة:

عرفت مدينة الموصل بانها واحدة من أهم المراكز التجارية في تاريخ العراق الإسلامي والعثماني، وقد كان لموقعها الجغرافي الاستراتيجي على ضفّة نهر دجلة وتشكيلها حلقة وصل بين الشرق والغرب دورًا محوريًا في ازدهار حركة التجارة، مما توجب انشاء مراكز تجارية تعتبر بمثابة محطات استراحة للقوافل التجارية عرفت بالخانات وكان لوجودها أثر كبير في تطوّر الحركة التجارية والاقتصادية داخل المدينة، حيث انها شكلت المراكز الداعمة لإقامة التجار والقوافل، وتخزين البضائع، وإدارة المعاملات التجارية، فضلا عن مساهمتها في النشاطات الاقتصادية والاجتماعية.

أولًا: مفهوم الخان في التراث الإسلامي:

الخان من المباني الخدمية اشتهر في المدن الإسلامية والعثمانية، واستخدم كمسكن واستراحة للتجار والقوافل [1]وكانت معظم الخانات تتألف من مدخل حجري واسع وبابين خشبيين كبيرين في أحدهما باب صغير لدخول الأشخاص بعد غلق البابين الكبيرة ليلاً، وفسحة مفتوحة في الوسط (حوش) يحيطه بناء من طابقين، الأول فيه مرابط ومعالف للحيوانات ومخازن للبضائع، والثاني فيه غرف لنوم المسافرين ومكاتب بسيطة للتجار والباعة[2]

و أصل كلمة الخان "خانمي ونصابة " وهي كلمة بابلية الأصل[3] الا ان بعض المصادر تزعم على انه كلمة خان هي كلمة اعجمية معربة ذات اصل فارسي مشتق من "خانة" بمعنى البيت او الموضع ،بينما ارجعها البعض الاخر الى اصل تركي مشتقة من كلمة "كرفان سراي " والتي تعني النزل او الفندق وقيل ان اصل الكلمة هو ارامي بمعنى دكان او مخدع ، وقد اشارت الدراسات ان السومريين كان لديهم وحدات خدمية مشابهة للخان كانت تسمى كار بينما الاشوريين اطلقوا عليها كاروم[4] وقد دخلت إلى العربية مع توسع الحركة التجارية في العصر الإسلامي وعرفت بعدة تسميات منها الوكالات والسماسر والنزل [5] واطلق على الشخص المسؤول عن إدارة الخان والذي يجهز ما يحتاجه النزلاء ب (الكيم)[6]ويعتبر الامويون اول من انشا الخانات وبالتحديد الخليفة الاموي (هشام بن عبد الملك) حيث بنى اول هذه الخانات على مقربة من قصر الحير الغربي ولم يبقى من هذا الخان الا بوابته الضخمة والتي اعيد بناؤها في متحف دمشق[7]

ثانيًا: الموصل كمركز تجاري تاريخي

تُعدُّ الموصل نقطة حيوية على طرق التجارة البرّيّة التي تربط بين آسيا الوسطى، الشام، الأناضول، والجزيرة العربية، إذ شكلت أسواقها ومنتجاتها محاور اجتماعية واقتصادية مزدهرة منذ العصور الإسلامية المبكرة. وقد ازدهرت أسواقها في مختلف الأزمنة، خصوصًا خلال العهد العثماني، عندما أصبحت مدينة تجارية حضرية بارزة ضمن الولايات العثمانية، وأشهر هذه الأسواق كان سوق باب السراي في قلب المدينة، الذي احتوى على شبكة من البازارات والمحلات والخانات، وأصبح مركزًا رئيسيًا لتجارة الحرير، التوابل والأنسجة منذ القرن الثامن عشر[8]

ثالثًا: الخانات في الموصل ودورها الاقتصادي

الموقع:

هناك نوعان من الخانات

1-خانات خارجية وهي التي تقع على الطرق الخارجية والتي تربط مدينة الموصل مع المناطق المجاورة لها مثل خان الحديد الذي يقع على طريق موصل تكريت وخان قرية عين الرصد الذي يقع الى الشمال من مدينة الموصل على طريق جزيرة ابن عمر وخان الخراب الذي يقع على طريق موصل سنجار[9]

2-خانات داخلية وهي التي تقع داخل مدينة الموصل وتركز معظم هذه الخانات في القسم الجنوبي من المدينة القديمة قرب الجسر الخشبي القديم (العثماني)[10]

التصميم والهيكل:

الخانات الموصلية كانت تتشكل عادة من مدخل واسع يؤدي إلى باحة مركزية تحيط بها غرف متعددة من طابقين. الطابق الأرضي خصص للاستراحة وإيواء الحيوانات وتخزين البضائع.

الطابق العلوي يحتوي غرفًا للنوم والمكاتب البسيطة التي استخدمها التجار واستخدم البناؤون المحليون مواد حجريّة معمارية تقليدية في البناء وقد سميت الخانات اما نسبة الى مالكيها مثل خان حمو القدو وخان قاسم اغا او حسب موقعها مثل خان الشط والمشهور بخان (الكمرك) وبعضها كان يسمى نسبة الى نشاطها التجاري او حسب المهن التي كان زوارها يمتهنوها مثل خان الصقالين والبزازين[11]

الوظائف الاقتصادية والاجتماعية للخانات

1-الاستراحة والتجارة: كانت الخانات توفّر الاستراحة للتجار الوافدين والمارة، وقدّمت مكانًا لعرض وتبادل السلع، وجلب التجار إلى قلب الأسواق الموصلية.[12]

2-التخزين والإدارة: استُخدمت كأماكن لتخزين البضائع، وعقد الصفقات التجارية، وأحيانًا كمراكز إدارية لتسجيل السلع.[13]

3-التكامل مع النشاطات التجارية في الأسواق: مثل بيع الجلود، الأقمشة، وأدوات الحرف اليدوية؛ إذ ارتبطت الخانات بالأنشطة المهنية في الأسواق المحيطة.[14]

4-الخدمات الاجتماعية: لم تقتصر وظيفة الخانات على التجارة فحسب، بل كانت تقدم خدمات للمجتمع مثل إسكان الفقراء ووظائف قضائية مرتبطة بالمحاكم الشرعية.[15]

من أشهر الخانات في الموصل:

خان الكمرك الكبير عند الجسر الحديدي الذي كان مركزًا لتسويق الفواكه والبضائع القادمة عبر النهر والبر. وخان حمّو القدّو قرب مركز السراي المتخصص في تجارة التبغ والجلود. و خان المفتي في باب السراي الذي عُرف بتجارة الملابس القديمة.

وقد تهدمت بعض الخانات خلال التطورات العمرانية الحديثة أو استبدلت بقيصريات وأماكن تجارية حديثة، مما أثار نقاشات حول الحفاظ على التراث.[16]

خان الكمرك:

يعتبر خان الكمرك واحداً من أبرز الشواهد الحية على عراقة مدينة الموصل وتاريخها التجاري الطويل. هذا المعلم الذي يفوح برائحة التاريخ، لم يكن مجرد بناءٍ عابر، بل كان وما يزال ركيزةً أساسية في هوية المدينة القديمة

النشأة والجذور التاريخية :

و يرتبط الخان تاريخياً بـ "جامع الأغوات" حيث أوقفه أبناء عبد الجليل (إسماعيل وإبراهيم وخليل آغا) لخدمة الجامع، لذا قد يُشار إليه في بعض المخططات القديمة بـ "خان الأغوات" قبل أن تطغى عليه التسمية الوظيفية "الكمرك"[17]

الموقع الإنشائي:

يقع الخان في قلب الموصل القديمة، تحديداً في سوق السراي قرب الجسر القديم، ويتميز بتصميمه الهندسي الفريد، وتعود قصة الخان إلى بدايات القرن الثامن عشر، وتحديداً بين عامي 1703 و 1704م. وضع لبنته الأولى أبناء عبد الجليل أغا (إسماعيل وإبراهيم وخليل)، وهم رواد الأسرة الجليلية التي ارتبط اسمها بحكم الموصل لقرون. بُني الخان ليكون صرحاً معمارياً يجمع بين القوة والجمال، مستخدماً حجر "الحلان" الموصلي الشهير الذي منح البناء صبغة محلية خالصة وعمرانياً يقاوم الزمن[18]

لماذا سُمي بـ "الكمرك"؟

لم يأتِ الاسم من فراغ حيث دلت تسمية (الكَمرك) على الضريبة التي كانت تجنى من التجار وهي تسمية لاتينية[19]، حيث كان هذا الخان بمثابة "الميناء البري" للمدينة. وبفضل موقعه الاستراتيجي

قرب "باب الجسر" وضفاف نهر دجلة، أصبح المحطة الإجبارية للقوافل التجارية الوافدة هناك، حيث كانت تُحط الرحال وتُرسّم البضائع وتُجبى الضرائب وفق الأنظمة العثمانية، مما جعل من سوق السراي المحيط به شرياناً اقتصادياً لا يهدأ.

عمارته:

عند دخولك للخان، تلحظ تصميماً ذكياً يجمع بين العمل والراحة (صورة رقم 1)، تبلغ مساحة الخان الإجمالية أكثر من 2000 متر مربع، ويحتوي على 68 غرفة، و45 خزانة، وإسطبلين، و4 أواوين، إضافة إلى 7 سلالم تؤدي للطابق العلوي.

المداخل: يضم الخان بابين رئيسيين(صورة رقم 2)، وفي منطقة القنطرة عند المدخل يوجد 18 دكاناً (صورة رقم 3)

وفي الطابق الأرضي تجد الباحة الواسعة المحاطة بالمخازن (العلاوي) والمحلات، حيث كانت تفرغ الأحمال وتتم الصفقات (مخطط رقم 1)

اما في الطابق العلوي فتقع الغرف المخصصة لإقامة التجار والمسافرين (صورة رقم 4)، والمطلة على الباحة الداخلية لتمنحهم الهدوء بعد عناء السفر (مخطط رقم 2)

تزين هذا التصميم الأقواس والعقود الهندسية التي تعكس براعة البنّاء الموصلي في تطويع الحجر[20](صورة رقم 5). مرّ الخان بأصعب لحظاته بين عامي 2014 و2017، حيث نالت الحرب من جدرانه وتضرر بشكل كبير. لكن إرادة الحياة في الموصل كانت أقوى؛ فبجهود محلية مخلصة وبإشراف من عائلة الجليلي، تم ترميم الخان وافتتاحه رسمياً في أوائل عام 2020.

اليوم، لم يعد الخان مجرد دائرة جباية، بل تحول إلى ملتقى ثقافي واجتماعي. فإلى جانب المحلات التجارية، صار يحتضن البازارات، والفعاليات التراثية، ومعارض الصناعات اليدوية التي تحكي قصة الموصل للأجيال الجديدة.

ومع انطلاق مشاريع طموحة مثل "نبض الموصل" (2025–2026)، يبرز خان الكمرك كحجر زاوية في خطة تأهيل المدينة القديمة، ليظل شاهداً ليس فقط على تاريخ الموصل العثماني، بل على قدرتها المذهلة على النهوض من الرماد والعودة كقلب نابض للتجارة والثقافة[21]

خامسًا: التأثير الاقتصادي للخانات

1- دعم التجارة الداخلية والخارجية:

ساهمت الخانات في تعزيز حركة التجارة داخل المدينة وخارجها من خلال توفير فرص العمل والاقامة للتجار الوافدين، إذ ربطت الموصل بشبكات تجارية واسعة امتدت إلى مناطق الشام، الأناضول، فارس، وما وراءهما، مما عزز من تدفق السلع والأموال

2- التكامل الحضري والاقتصادي:

كانت الخانات تعمل ضمن منظومة اقتصادية متكاملة تشمل الأسواق الرئيسية، حيث شكلت حلقة وصل بين الإنتاج المحلي والتجارة الإقليمية، وساهمت في تنظيم الأسعار، تجارة الجملة والتجزئة، وزيادة الدخل المحلي.

3- الدور الاجتماعي:

لم تقتصر الوظائف الاقتصادية فقط، بل أصبحت الخانات أعضاء في النسيج الاجتماعي، إذ احتوت خدمات إضافية كمأوى للفقراء والمسافرين، ومراكز لتسوية النزاعات التجارية في بعض الأحيان[22]

الخاتمة:

إن الخانات في الموصل الإسلامية كانت أكثر من مجرد منشآت معمارية؛ فقد كانت عناصر أساسية في النشاط الاقتصادي والتجاري للمدينة. من خلال دعمها للتجارة الداخلية والخارجية، وتسهيل حركة البضائع، وتوفير أماكن إقامة للتجار، وتنظيم حركة الأسواق، لعبت هذه المباني دورًا محوريًا في ترسيخ المكانة التجارية للموصل عبر التاريخ الإسلامي والعثماني على وجه الخصوص.

في ختام هذه الدراسة التاريخية والمعمارية، توصل البحث إلى مجموعة من النتائج التي تؤكد مكانة الخانات في تاريخ الموصل الإسلامي، وأبرزها:

المزاوجة الوظيفية: أثبتت الدراسة أن خانات الموصل، وبالأخص خان الكَمرك، لم تكن مجرد منشآت خدمية للإيواء، بل كانت بمثابة "مراكز تبادل تجاري عالمية" لعبت دوراً حاسماً في ربط الاقتصاد المحلي بالأسواق الدولية عبر طريق الحرير وطرق القوافل الحيوية.

الخصوصية المعمارية: كشف البحث عن امتلاك الموصل لمدرسة معمارية متميزة في بناء الخانات، اعتمدت على الخامات المحلية (كحجر الحلان والفرش الموصلي) وطوعت الهندسة لتلبية احتياجات المناخ والأمن، مما جعلها نماذج معمارية صلبة قاومت الزمن.

المركزية الاقتصادية لخان الكَمرك: تبيّن من خلال التوثيق أن خان الكَمرك مثّل النقطة السيادية للتجارة في الموصل؛ لقربه من الجسر وبوابات المدينة، وكونه مركزاً لتنظيم الجمارك وجباية الأموال، مما منحه أهمية تاريخية تفوق غيره من الخانات.

القيمة التوثيقية: تؤكد الدراسة أن الحفاظ على ما تبقى من هذه المعالم ليس مجرد ترف فكري، بل هو ضرورة وطنية لاستعادة الذاكرة الجمعية لمدينة الموصل وإعادة إحياء هويتها كعاصمة اقتصادية وتاريخية.

التوصيات:

يوصي البحث بضرورة تفعيل برامج الترميم العلمي لخان الكَمرك والخانات المجاورة وفق المعايير الدولية، وتحويلها إلى مراكز ثقافية أو سياحية تستثمر عمقها التاريخي في التنمية المستدامة للمدينة القديمة.

الصور والاشكال

صورة (1) الواجهة الشمالية المطلة على الحوش تصوير الباحثة

صورة (2) المدخل الرئيسي الجنوبي تصوير الباحثة

صورة (3) منطقة القنطرة عند مدخل الخان تصوير الباحثة

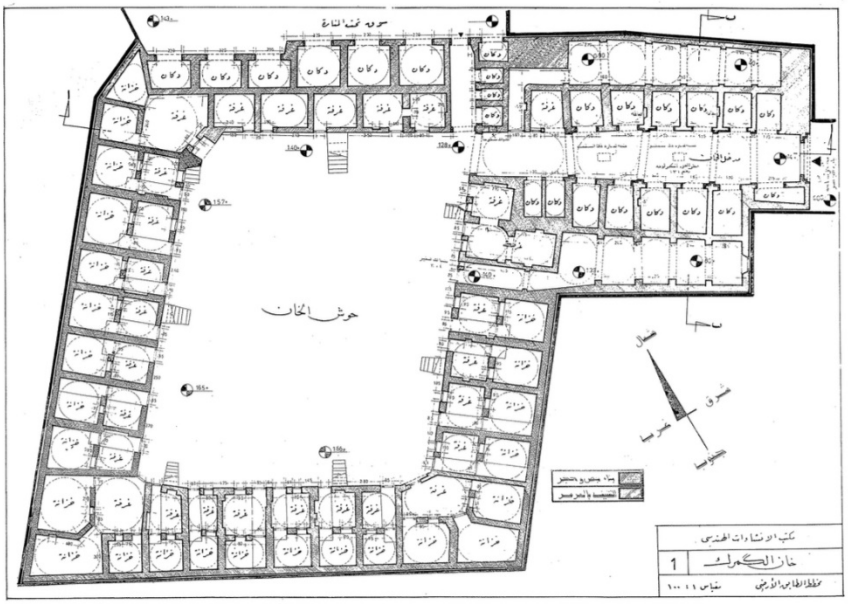

مخطط (1) مخطط الطابق الأرضي لخان الكمرك عن مكتب الانشاءات الهندسي

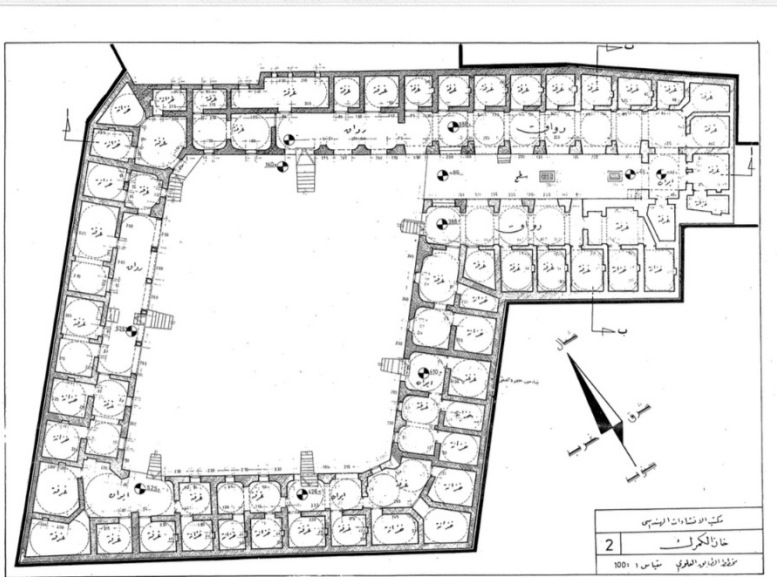

مخطط (2) مخطط الطابق العلوي لخان الكمرك عن مكتب الانشاءات الهندسي

صورة (4) واجهات الخان والتي تطل على الحوش تصوير الباحثة

صورة (5) مدخل غرف الخان تصوير الباحثة

المصادر والمراجع:

1-هاشم، هشام سوادي: "إسهامات الموصل الحضارية في العمارة الإسلامية في العهد العثماني: الخانات التجارية أنموذجًا"، مجلة التربية والعلم، جامعة الموصل، ص 15

2-عثمان، عروبة جميل محمود: "الأسواق والخانات في الموصل من خلال سجلات المحكمة الشرعية (1831–1918)"، مجلة دراسات موصلي، ص 55

3-العزاوي، لمياء حسن: "الخانات دراسة معمارية لحالة من بغداد"، أنظمة المدينة الإسلامية، مركز احياء التراث العلمي العربي، جامعة بغداد، دار الحكمة للطباعة والنشر /الموصل – 1991، ص 152

4- نزار، برهان: "خانات بغداد" ، مجلة المورد /ع 4 ،ص 28

5. محمد ، غازي رجب : العمارة العربية في العصر الإسلامي في العراق ، جامعة بغداد ، دار ابن الاثير للطباعة والنشر – 1989،ص 21

6- العزاوي ، المصدر نفسه ، ص 153

7-محمد : المصدر نفسه ، ص 21

8- عبد الستار ، فارس : الموصل ذاكرة مدينة ، دار نون للطباعة والنشر والتوزيع -2021 ،ص 92

9- سيوفي ،نقولا : مجموعة الكتابات المحررة في ابنية الموصل ،مطبعة شفيق ،بغداد – 1956 ، تحقيق سعيد الديوجي ، ص 166

10 – عبد الستار ، المصدر نفسه ،ص 92

11- الحيالي ، اكرم محمد يحيى : " خطط خانات الموصل خلال العهد العثماني" ، مجلة دراسات موصلية ، مج 2012 ، ع 38 ، ص 29

12- مصطفى ،صالح لمعي: التراث المعماري الإسلامي في مصر ،دار النهضة العربية للطباعة والنشر ،ط1 ،بيروت –لبنان ،ص56

13- الجمعة، احمد قاسم : "الدلالات المعمارية وتجذيرها الحضاري " موسوعة الموصل الحضارية ،م3 ،ط1، دار الكتب للطباعة والنشر –جامعة الموصل ،1992م ،ص 322

14- يوسف، شريف: تاريخ فن العمارة العراقية في مختلف العصور، دار الرشيد للنشر –العراق ،1982، ص 521

15- عبد الستار ،المصدر السابق ،ص 93

16- عبد الستار ،المصدر نفسه ،ص93

17- ذنون ،يوسف واخرون :العمائر الخدمية في مدينة الموصل ،ج 2 ،مكتب الانشاءات الهندسي ،الموصل ،1995 ، ص40

18-عبد الستار ،المصدر نفسه ، ص 96

19- ذنون واخرون ،المصدر نفسه ، ص 40

20- ذنون واخرون ،المصدر نفسه ، ص 41

21-الباحثة

22- الديوه جي ،سعيد :تاريخ الموصل ،ج2، 2001م ،ص280-281